العدد(1459) السنة السادسة -الاربعاء (18) آذار 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

في ذكرى رحيله

جعفر علي عراب السينما العراقية

جعفر علي

د.فاضل خليل

ضمن تجربتين مهمتين لي خضتهما مع المخرج جعفر علي، كنت فيهما الداينمو- حسب جعفر علي- الذي ساعد على انضاج تلكما التجربتين، التجربتان هما: مسرحية (فيت روك) للكاتب الأمريكي: ميكان تيري، ترجمها وأخرجها جعفر علي، و(أين تقف)، من تأليف واخراج: جعفر علي. الأولى تحدثت عن الحرب الفيتنامية-الأمريكية (جون مكين، أحد مرشحي انتخابات الرئاسة الامريكية الأخيرة كان واحدا من ابطالها)، عنوان المسرحية مركب من مقطعين هما: (فيت) وتعني القسم الأول من (فيت نام) و(روك) وهي أيضاً القسم الأول من (روك آند رول)، والمعنى التركيبي للكلمتين، وحسب ما شرحهما لي جعفر علي تعطينا فكرةالعمل المسرحي وكما يلي: «ان تلوي الأمريكي، على أنغام موسيقى الـ (روك آند رول)، شبيه بتلوي الفيتنامي برصاص الامريكان، في الحرب الفيتنامية-الأمريكية».

أما المسرحية الثانية (أين تقف)، فهي جاءت كرد فعل ايجابي بعد تأميم نفط العراق في العام ١٩٧٢ وانحياز الكاتب لفعل التأميم كقرار وطني في صالح العراق، وانطلاقا من تصوره الكاتب-المخرج بأهمية الحدث الكبير لأن يكون نفط العراق في خدمة العراقيين، أطلق التساؤل التالي الذي وضعه كعنوان للمسرحية، (أين تقف) من هذا القرار؟ أملا في حسم ما ساد من مخاوف بعد اتخاذه، وما دار من أسئلة واختلافات في وجهات النظر في حينه، لقد كان البعض من تلك الاسئلة مترددا، من احتمالات العدوان على العراق، بسبب خطورة قرار من هذا النوع.

من هنا انطلقت في انحيازي الى المبدع جعفر علي باعتباره، وطنياً مسكوناً بحب العراق، إضافة الى كونه مبدعا متعدد المواهب، موسوعياً، كاتباً، شاعراً، يجيد الترجمة، إضافة الى كونه المخرج السينمائي والمسرحي، والرسام والمؤلف الموسيقي، والعازف، والتدريسي، والاداري، والمصمم الذي صمم كافة مناظر المسرحيات التي قدمها واشرف بدقة على تنفيذها.بالاضافة الى صفاته الخاصة فهو يتمتع باللباقة، وهو المرح، الساخر، الذكي بلا حدود، المفكر، القائد، المنظم، المتواصل مع العالم، المتفتح، الشجاع، المتحايل على الظرف الصعب، المتباهي بالوطن-المسكون بالعراق، العراق الذي مات في حبه.

ينطلق جعفر علي من اعتبار، أن الكاميرا صورة مجازية للعين، والعين صورة مجازية لرؤية الفنان الكونية والشعرية، هذا الفهم المتقدم للعمل والحياة، جعله يتعامل مع السينما في كونها اللغة الأكثر شجاعة وايصالا لأفكاره في ايصال الحقيقة، وفي مقارعة ما يستجد عنده من خصوم، هكذا راق لي ان تكون البداية في الكتابة عن جعفر علي، أي من مكانة السينما التي أحبها كثيرا، وناضل من أجل أن تكون مؤثرة في العراق، ولو بالإمكانات المتواضعة غير المشجعة، فصنع وبالإمكانات البسيطة أول فيلم انتجته الدولة-السينما والمسرح-وهو فيلم (الجابي)، وأسس للسينما والتلفزيون أول قسم علمي في أكاديمية الفنون الجميلة هو (قسم السمعية والمرئية ١٩٧٣)، طامحا في يوم من الايام أن يكون القسم معهدا عاليا للسينما يرفد العراق بالكوادر العلمية المتمكنة من قيادة السينما في العراق، معهد يقف بجدارة امام أهم معاهد السينما في العالم، وهومن ترجم للسينما واحدا من أهم الكتب السينمائية (فهم السينما-لمؤلفه: لوي دي جانيتي) الذي استهل مقدمته بقول أثير للمخرجة السينمائية الأمريكية (مايا ديرن)، في أن « للسينما مدى تعبيري غير اعتيادي، فهي تشترك مع الفنون التشكيلية في حقيقة كونها تكوينا مرئيا يسقط على سطح ذي بعدين، ومع الرقص في قدرتها على معالجة الحركة المنسقة، ومع المسرح في قدرتها على خلق كثافة درامية للأحداث [.....]».

من هنا يمكننا معرفة الأهمية التي يعنيها المسرح في نفس جعفر علي. ومثلما قدم للسينما الكثير، كذلك قدم الكثير للمسرح.

لقد ظهر جعفر علي في واحدة من اهم المراحل الثقافية التي مر بها العراق والمنطقة صعوبة، حيث كان الغزو الثقافي الجميل في قمة ألقه يقيم ظلاله الوارفة على العراق والمنطقة. فالثقافة الوافدة المحفزة لأن يكون للعراقيين ثقافتهم الخاصة في أوجها شكلت حافزا على عموم المثقفين العرب وفي مقدمتهم العراقيون مع قليل من الخوف يشوبه الحذر، وان شئت اعكسها لتصبح، الحذر المشوب بالخوف، لكنه خوف غير مصرح به، فستينيات القرن الماضي شكلت انعطافة خطيرة على كامل الجيل من تلك المرحلة، نتيجة الأحداث الكبيرة التي مرت بهم وقتذاك، ان الذي مر بها جيل ماقبل تلك المرحلة المتهم بسكونيته، التي لم تعرف الانفلاتات الثقافية الا ما ندر، قاد ذلك الخروج على المألوف وما صاحبها وجاورها من نزاعات جيل خطير، سجلت له، ولصالحه المرحلة بأكملها وبجدارة، انه (جيل الستينيات) المشاكس الخطير، ولم يكن (جعفر علي) الا واحدا من أبرز رواد ذلك الجيل الستيني الذي ساقه غياب حبيبته (السينما) وشحة الإنتاج الفيلمي، لأن يدخل المسرح، ولم يدخله خانعا، ضعيفا كونه مجالاً آخر غير عالمه، بل يتضح أنه كان متسلحا لأن يكون واحدا من قاماته العالية، وبكل جدارة، وفهم، ودراية. دخله بقوة، أسس له (فرقة مسرح اليوم)، التي وقفت بتحد أمام اهم الفرق المسرحية العاملة آنذاك من أمثال: فرقة المسرح الفني الحديث، والفرقة الشعبية، وفرقة ١٤ تموز، وسواها من الفرق التي ساهمت في تأسيس وبناء الحركة المسرحية العراقية.

كان يندر ان تجد بين الفنانين مثقفا بجلال وجمال، جعفر علي، اذا ما فكر الفنان ان يخوض غمار تلك الزحامات القاسية لابد له من ان يتنازل عن بعض فنه ليماهي بين الفن والثقافة النقية، ولنا من الامثلة في ذلك الكثير يقف على رأس القائمة جاسم العبودي ولن تنتهي بقاسم حول وفاروق اوهان. وعليه فان جعفر علي تألق في بحر موجة الثقافات التي ساهمت في تكوين المثقف العراقي بشكل عام ومنهم الفنانون على مختلف مشاربهم الفنية من تشكيلية الى مسرحية وسينمائية وغيرها، في تلك الفترة كان اكثرها تخلفا فن الدراما التلفزيونية التي استفزت جعفر علي فسعى للنهوض بها كي يوازيها ببقية الثقافات والفنون.

لقد اشير في هذه المرحلة-الستينيات والسبعينيات وما تلاها من سنين نشاط جعفر علي- الى ان جعفراً واحد من أهم المثقفين الذين امتهنوا الثقافة بمختلف توجهاتها، فهو في السينما والتلفزيون والمسرح الذي بالإمكان ان نضعه في المقدمة من الاسماء التي لمعت في المسرح وكان لها شأن فيه يخشاه فيه اساطين وكبار الأساتذة في فن المسرح، وكان له الرأي الفصل اذا ما اختلف في قضية مسرحية فيه اثنان، وكما في المسرح هو كذلك في بقية الفنون، فهو في جميعها يمتلك الريادة، وأضف عليها اهتماماته التخصصية في التأليف والترجمة وكتابة الشعر والصحافة، ولا، لن يفوتني ان اذكر انه من المؤلفين الموسيقيين وعازف ماهر لآلة البيانو والآلات اخرى، ولعل الدليل الاهم في هذا ألحانه أغاني مسرحية (فيت-روك) ومسرحية (أين تقف) وتدخله المؤثر على مجمل أعماله الفنية في مختلف المجالات. كنا نلمس فيه مميزات المرحلة التي تمر بها الثقافة العالمية، كنا نجدها أمامنا في جعفر علي، ولذلك كثر الشباب الذي احاط به، كان هو المجيب عن تساؤلاتنا في اين نحن الآن من الثقافة في العالم التي كان هو متواصلا معها من خلال متابعاته التي لا تنقطع مع الثقافة العالمية، كان يتابع الجديد من خلال وسائل الاعلام والنشريات والدوريات بمختلف لغاتها- كان يتميز بإتقانه لأكثر من لغة، على رأسها اللغة الانجليزية بجدارة، قراءة وكتابة- كنا نتحلق حوله بكل صدق لمعرفتنا بما يملكه لنا من جديد كطلبة من ذوي التطلعات في ما يجري من جديد في العالم، وكان هو السباق في تقديم الجديد من المضامين الانسانية والاشكال، في الفن العراقي، وهل يمكن ان نتناسى موقفه من قضية فيتنام وحربها الضروس مع امريكا، أو موقفه من القضية الفلسطينية، ومواقفه الوطنية التي جسدها في اعماله مثل موقفه من قضية تأميم النفط العراقي.. وغيرها ان ما تركه فينا من آثار هامة في الفن والحياة نحن طلابه، الذين أستفدنا منه كثيرا، وأفدناه قدر استطاعتنا، كان اول من جعلنا نتعامل مع العمل الفني كما البحث العلمي منه الى الممارسة القريبة من الهواية فقط. كان لديه الكثير من الطموحات التي لم تتحقق، يقف على رأس تلك الطموحات، (أن يتحول قسم السمعية والمرئية، الى كيان أكاديمي قائم بذاته، وليس قسما في كلية).

ومن طموحاته (تأسيس ستديو للسينما والتلفزيون) يكون بديلا عن استديو بغداد الذي أغلق ابوابه قبل ان تحقق السينما العراقية طموحاتها.

بعد تكريمه في مهرجان سيزار السينمائي:

دستن هوفمان يعيش فرصته الاخيرة للحب

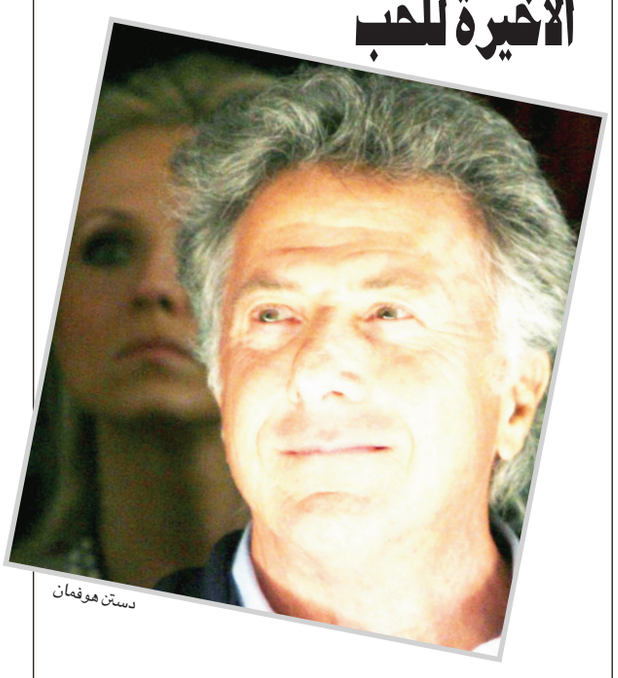
دستن هوفمان

ترجمة: عدوية الهلالي

في حفل جوائز سيزار السينمائي، تم تكريم النجم الأمريكي دستن هوفمان عن مجمل أفلامه السينمائية..

بعد الاحتفال، تحدث هوفمان لصحيفة الفيغارو الفرنسية عن آخر أفلامه ويحمل عنوان (الفرصة الأخيرة للحب) وهو كوميديا رومانسية ظريفة يجسد فيها النجم العالمي دور موسيقي يعاني الفشل والإحباط ثم يصادفه الحب متأخراً فيعيش قصة حب جميلة مع الفنانة ايما ثومبسون.. ولا يعتبر الحب متأخراً بالنسبة لمن هم في سن هوفمان فهو من الشخصيات التي ترفض الشيخوخة بشكلها الفسيولوجي والشباب لديه يرتبط بالعاطفة.. ويسخر هوفمان من خيانة المرآة الدائمة لفلسفته هذه حين يرى صوته فيها.

مع ذلك، لا يشعر بالانزعاج من التقدم في السن لأنه يعي تماما لعبة الحياة والإحساس بالنضج المرتبطين به.. ويقول هوفمان ان فكرة الفيلم اثارت إعجابه لأيمانه بتلك الفلسفة التي تقول بضرورة ان يعيش الإنسان لحظته الحاضرة بكل تفاصيلها، ويبدو هوفمان بكامل توقد ذهنه وجاذبيته وهو يخطو سريعا نحو سن الحادية والسبعين إذ يمتزج في شخصيته الظرف والميل الى الدعابة بالموهبة الفذة والعبقرية مستحقا بذلك صفة (أسطورة السينما) التي يطلقها عليه النقاد..

وردا على سؤاله عن رأيه بالوقوع في الحب في وقت متاخر قال انه يعيش لحظته الحاضرة بشكل كامل ويتلذذ بذلك من دون التفكير في الماضي والمستقبل ..ويشعر هوفمان بان علاج المرء من التعاسة يكمن في هذه الفلسفة التي يؤمن بها تماما..

ولا يفضل هوفمان مقارنته بعمالقة التمثيل من امثال كاري غرانت وجاك نيكلسون وهمفري بوغارت فهو ممثل كبير أيضاً لكنه لا ينظر الى التمثيل باعتباره الحقيقة الوحيدة في حياته، بل يعتبر دخوله الى هذه المهنة رضوخا لواقع لم يكن يفكر فيه اصلاً.

وبرغم ذلك، كان هوفمان قد حطم جميع القوالب المعروفة حين جسد دوره في فيلم (المنتصر) في عام ١٩٦٧ وكان شابا صغيرا يطأ لأول مرة عتبة استوديوهات هوليوود.

في ضواحي المدن، عاش هوفمان طفولته وصباه ولم يشعر يوما بانه شخص مميز الا حين جسد شخصية رجل آخر، وقاده ذلك الى دراسة التمثيل.. ويعتبر هوفمان دخوله الى عالم التمثيل حادثا عارضا فقد كان يرغب دائما في عزف موسيقى الجاز ويحلم بان يكون موسيقيا شهيراً.

في فيلمه الأخير، يحقق هوفمان حلمه بعزف موسيقى الجاز من خلال شخصية (الموسيقي) الرئيسية ولا يعتبر ذلك مصادفة طالما يخلق صلة مع ماضيه، لهذا شرع في تأليف اللحن الذي عزفه على البيانو في الفيلم بنفسه، ثم اخذ دروسا في الموسيقى بعد ذلك.

ويشعر هوفمان بسعادة لتجسيد شخصية تناسب ميوله على الشاشة في فيلمه الجديد (الفرصة الأخيرة للحب)، فمنذ أفلامه الأولى وهو يتنقل بين ادوار رائعة كما في (الصغير الكبير) و(رجل المطر) و(رجل المارثون) و(توتسي) ويتحدى ذاته والجميع بأدواره المميزة تلك، اما عن اكثر أدواره ايلاما فكان في فيلم (كرامر ضد كرامر) لأنه اعقب طلاقه مباشرة فعاش مشاعره الحقيقية على الشاشة، الا ان اكثر ما يؤلم هوفمان هو إحساسه احيانا بان فيلما ما لن يحقق النجاح الذي يرجوه بسبب اخفاء المخرج بعض الحقائق مشبها ذلك بالقبطان الذي يقود سفينة (تايتانك) دون ان يرى جبل الجليد!!

ويؤمن هوفمان بان الكذب مؤلم كما هي الحقيقة لكنه يفضل مواجهة الالم على تجنبه فالحياة بالنسبة اليه مثل محرك ساخن يخشى المرء الاحتراق بناره بسبب طبيعته الإنسانية.

العثور على فيلم مفقود لستانلي كوبريك

ترجمة:عمار كاظم محمد

لقد حلم المخرج الأسطورة ستانلي كوبريك بإخراج فيلم عن المحرقة اليهودية «الهولوكوست» لكن المخرج الشهير ستيفن سبيلبرغ قد سبقه في ذلك وهاهو معرض جديد لهذا الفيلم يرينا ما افتقدناه لدى المخرج ستانلي كوبريك.

ربما لم يسمع أحد بممثلة تدعى جوانا تير ستيج على الرغم من أن المخرج الأسطورة ستانلي كوبريك قد دعاها كأفضل ممثلة يعرفها.

ولدت تير ستيج عام ١٩٦١ وكانت لديها موهبة ناجحة إلى حد معقول في ذلك الوقت وقد ظهرت في أفلام للمخرج جورج سالزر مثل «الاختفاء عام ١٩٨٨» والمخرج ستيفان زابو في فيلم «ايما الجميلة» و«الغالي» عام ١٩٩٢ وفيلم للمخرج بروس بريس فورد «طريق الجنة» عام ١٩٩٧ لكنها بقيت برغم ذلك اسما بالكاد يكون معروفا حتى في موطنها الأصلي هولندا.

تتذكر الممثلة ذلك وهي تضحك قائلة لقد كانت الظروف مختلفة جدا في بداية التسعينيات حين استدعيت إلى مدينة سانت البانس لمقابلة كوبريك لقد أرادها المخرج الشهير أن تقوم بدور البطولة في فيلم يتحدث عن «المحرقة» من تقارير الصحف الآرية في رواية لويس بيغلس «أكاذيب زمن الحرب» ولو كان الفيلم قد تم إخراجه لأصبحت هذه الممثلة من النجوم الكبار في عالم السينما.

وكان كوبريك مقتنعا بأنه قد وجد ممثلة ذات أداء سيطلقها إلى طليعة نجوم السينما ويعطي لهذا الفيلم الحزين والجاد التألق المطلوب.

يقول المنتج جان هارلان والذي هو نسيب كوبريك عن تير ستيج أنه لمن المدمر بالنسبة لهذه الممثلة أن ذلك الفيلم لم يصنع، انه يشبه ذلك الموسيقي الشاب الذي تتاح له الفرصة لأول مرة أن يقدم قطعة موسيقية في أكبر الصالات وأشهرها ثم يخبرونه بعد ذلك أن عرضه قد تم إلغاؤه ،انه لأمر فظيع بعد أن كان ذلك الموسيقي قد تدرب وهيأ نفسه منذ عدة أشهر لهذا العرض.

وهذا ما حصل، فقد تم تأجيل وإلغاء ذلك الفيلم فيما بعد لكن ستتاح للمشاهدين أخيرا الفرصة لرؤية شبح ذلك السيناريو الشهر المقبل في احتفالية عرض تحتفي بالمخرج الراحل ستانلي كوبريك في مدينة ساوث بانك في لندن حيث قامت الأختان جين ولويز ويلسون المرشحتان لجائزة تيرنر للفن بتكوين تركيب جديد لمقاطع ذلك الفيلم الملغي من خلال البحث في أرشيف كوبريك حيث حصلتا على لقطات ومعلومات حول الفيلم المذكور.

يقول جان هارلان: إن كوبريك قد حاول وضع قصة المحرقة في نصٍ مسرحي خلال فترة امتدت لعشرين عاما، لقد كان الأمر تحديا كبيرا بالنسبة له، فكيف يمكن أن تكثف قصة أحد أكثر الحوادث الشنيعة في القرن العشرين في ساعتين من العرض المسرحي؟

لم يكن لدى كوبريك شوق لصنع فيلم وثائقي من جهة، ومن جهة أخرى انه لم يعثر على النص أو السيناريو الذي يقنعه، وقد أرسل كوبريك هارلان للروائي ايزاك باشفز سنجر طلبا بكتابة نص سينمائي عن المحرقة في عام ١٩٨٠ رد ذلك الروائي بأنه « لا يعرف اول شيء عنها « وكان استنتاج ذلك الروائي أن الحديث من خارج الحدث لا يفي المحرقة حقها من العدالة.

لقد كان هذا الموضوع يمثل تحديا كبيرا بالنسبة لصانعي الأفلام وحتى بالنسبة لموهبة متألقة مثل ستانلي كوبريك لذلك استمر كوبريك في معالجة هذا الموضوع من خلال إجراء عملية بحث ضخمة في مختلف المصادر التي تناولت قضية المحرقة حتى صدور رواية بيغلي عام ١٩٩١ والتي وجدت فيها كتابا موثوقا وعميقا حول هذا الموضوع.

عادت الممثلة تير ستيج إلى هولندا بعد مقابلتها كوبريك حيث تم اختبارها للدور وكانت تنتظر موعد بدء تصوير الفيلم وقد تم إخبارها أن الفيلم سيبدأ إنتاجه خلال ثلاثة أو أربعة أشهر لكن لم يحدث شيء من هذا حيث اتصل بها هارلان قائلا أن تصوير الفيلم قد تأجل لكن عليها أن لا تقلق بسبب ذلك، وبقيت هذه الممثلة تنتظر سبعة أشهر من دون عمل إلى أن تم الاتصال بها مجددا ليخبروها أن كوبريك قد قرر عدم القيام بتصوير هذا الفيلم بسبب أخبار تسربت داخل الوسط أن ستيفن سبيلبيرغ بدأ تصوير فيلمه عن الموضوع نفسه وهم يخشون أن الجمهور لا يحتمل فيلمين عن المحرقة في وقت واحد.

وكان رد فعل الممثلة على تلك الأخبار السيئة أنها بقيت ليومين في الفراش مغطية رأسها بالوسائد ولم تتحدث عن هذا الموضوع لعدة سنوات ولم تفتح النقاش حوله إلى أن قامت الأختان ولسون بعرضهما هذه المقاطع المجتزأة حول ذلك الفيلم الذي لم ينجز حيث تحدثت عن الملابسات التي رافقت ذلك الفيلم.

لقد بقيت تلك الممثلة على اتصال مع هارلان وعائلة ستانلي كوبريك حتى بعد وفاته وقد دعيت مرة هي وزوجها وابنتها لحفلة عيد الفصح في بيت ستانلي كوبريك بعد وفاته حيث تقول: أتذكر أن ابنتي كانت تبحث عن بيضة الشوكولا في عيد الفصح قرب قبر ستانلي لأنه كان مدفونا في حديقة بيته.

تضيف الممثلة عن تجربتها مع ستانلي كوبريك قائلة: ماذا يمكنني أن أقول؟ أنا لم أكن آسفة لما حدث ومازلت اشعر بأن كلمات واختيار كوبريك لي هما تقدير كبير، لقد كانت تجربة رائعة لكن نهايتها مؤلمة وكنت أحس بأن مستقبلاً كبيراً أمامي لكنه كان مثل منطاد ضخم يتمثل إمامك ثم فجأة يحدث فيه ثقب فيتلاشى وكان يجب علي أن استمر بعد ذلك وهي ليست المرة الأولى في حياتي التي أدرك فيها أن السعادة الشخصية ليست لها علاقة بالنجاح.

ستانلي كوبريك

عن/ صحيفة نيويورك تايمز

«حياة الآخرين».. الحائز على جائزة الأوسكار

صلاح حسن

أمستردام

تخطو السينما الألمانية يوما بعد يوم خطوات واسعة باتجاه صناعة أفلام حديثة ومختلفة تتجاوز حدودها الأوروبية إلى كل مكان في العالم على أيدي مخرجين وكتاب سيناريو جدد ابهروا العالم بأفلامهم في السنوات الثلاث الأخيرة، فقد شاهد العالم قبل سنة من ألان فيلم العطر المأخوذ عن رواية بالعنوان نفسه «شاهده في أوربا وحدها أكثر من خمسة ملايين مشاهد» وقبل سنة من ألان أيضا اطل علينا المخرج الألماني فلوريان دونرسمارك بفيلمه الباهر «حياة الآخرين» الذي مازال يعرض حتى هذه اللحظة بعد إن نال الأوسكار كأفضل فيلم أجنبي في العام الماضي .

يصور الفيلم قصة مستلهمة من ألمانيا الشرقية قبل سقوط جدار برلين بسنوات قليلة ويتحدث عن حياة كاتب يوضع تحت المراقبة من قبل المخابرات، غير إن الضابط المكلف بمراقبة هذا الكاتب يتأثر بطريقة حياة الكاتب كما لو انه يكتشف حياته من جديد وفي النهاية يقرر إن يقدم تقارير كاذبة إلى مدرائه من اجل حماية الكاتب وحماية صديقته التي يقوم بابتزازها وزير الثقافة ويجبرها على ممارسة الجنس معه.. القصة واقعية وربما مأخوذة من أرشيف دائرة المخابرات في ألمانيا الشرقية لان سيناريو الفيلم البديع خلا من اصغر الثغرات وكان محسوبا بدقة متناهية مثل أي عملية مخابراتية.

يبدو رجل المخابرات المكلف بمراقبة الكاتب، الممثل الكبير «اورلش موهي» وحشا في صرامته الوظيفية وآلة مبرمجة في أداء واجبه ولا يعرف من الحياة سوى العمل والبيت الخالي من أي شيء يذكر بوجود إنسان يعيش في هذا المحيط، لكن هذا الوحش كما هو حال انكيدو في ملحمة كلكامش يروض من خلال البغي التي تعيد له إنسانيته المدفونة تحت طبقات عميقة في اللاوعي.

فبعد إن يتابع رجل المخابرات هذا أثناء مراقبته لحظات حميمة بين الكاتب وصديقته الممثلة المسرحية «مارتينا غديك» يكتشف انه لم يعرف امرأة طيلة حياته، لكن حين يمارس الجنس مع العاهرة لأول مرة تبدأ حياته تتخذ مسارا مغايرا تماما، ثم يقوم بتناول الكحول ويكتشف في تلك اللحظات إن في داخله إنسانا حيا وجيدا فوق ذلك، إما الانقلاب الحقيقي فيحدث عندما يستمع إلى قطعة موسيقية رائعة موقعة على آلة البيانو فتنحدر دموعه بصمت كما لو انه نادم على سني حياته التي قضاها في تدمير حياة الآخرين.. هنا تحدث الانعطافة الأولى في الفيلم من دون إن يخرج عن مساره.

يرينا الفيلم بطبيعة الحال الطريقة التي تعمل بها أجهزة المخابرات في العالم، لكن في هذا الفيلم نرى جهاز مخابرات من نوع خاص لأنه جهاز لدولة فاشية قائمة على ايديلوجيا متعصبة وتابعة لحزب واحد أوحد، بحيث تتحول هذه الايديلوجيا من فكر إلى دين ينبغي على الجميع عبادة الأخ الأكبر فيه من دون سؤال أو نقاش، هذا من جانب، إما الجانب الأخر فالفيلم يرينا كيف يتحول المواطن في هذا البلد إلى متهم ينبغي إن يثبت براءته كل يوم، إما السخرية المبطنة التي نجح كاتب السيناريو في إبرازها فسوف نجدها في اللغة التي يستخدمها المحققون مع المشتبه بهم، اذ غالبا ما يبدأون حوارهم بكلمة «حضرتك أو أيها السيد» لكن ما يحدث بعد ذلك شيء آخر تماماً.

الممثل القدير سباستيان كوك الذي رأيناه في فيلم «كتاب اسود» للمخرج الهولندي فرهاخن يقوم بدور الكاتب في هذا الفيلم بعفويته التي تعد سمة ثابتة في أدائه المتميز، يعيش هذا المثقف مثل غيره من مثقفي الشطر الشرقي من ألمانيا حالة من الإحباط والخوف لأنه معرض في كل عمل أدبي يقدمه إلى المساءلة من قبل الأجهزة الأمنية التي منعت احد أصدقائه من الكتابة والنشر ما دفعه إلى الانتحار، هذا الحدث المؤلم يدفعه إلى البحث عن آلة طابعة من اجل كتابة مقال عن الوضع الرهيب في البلد وتهريبه إلى الشطر الغربي من ألمانيا لينشر في صحفها حيث سيحدث المقال ضجة كبيرة.

الانعطافة الثانية في الفيلم والتي ستزيد من توتر القصة تبدأ من شك المدراء بطبيعة التقارير التي يقدمها الضابط المكلف بالمراقبة، وعلى ضوء هذا الشك يجري اعتقال صديقة الكاتب وتهديدها من اجل الاعتراف حول كاتب المقالة ومكان الآلة الطابعة، الأكثر من ذلك إن على الضابط الذي يراقب الكاتب إن يقوم باستجواب المرأة لحنكته الشديدة في هذا المجال وعليه في هذه الحالة إن يضرب عصفورين بحجر، العصفور الأول إن عليه أن ينقذ نفسه باستخدام صرامة كافية في التحقيق لكي يثبت للمدراء انه مازال يعمل معهم، والأخر أن يقنع المرأة وعن طريق اللغة أيضا بعدم الاعتراف.

ولان المرأة تنهار وتعترف يغادر مكتبه بسرعة ودون علم احد ويذهب إلى بيت الكاتب ويخفي الآلة الطابعة في سيارته قبل مجيء الدورية وبذلك ينقذ الكاتب، لكن صديقة الكاتب تنتحر تحت وطأة الشعور بالذنب وهذه وسيلة فنية وتقنية استخدمها المخرج ليدلل للمشاهد على إن هذه الأعمال ينبغي إن ينتج عنها ضحايا في النهاية.

بعد سقوط جدار برلين تفتح دائرة مخابرات ألمانيا الشرقية أمام الزوار ويذهب الكاتب لرؤية الملف الضخم الذي جمعه الضابط الذي كان يراقبه فيجد مادة دسمة لكتابة رواية، بل يجد رواية جاهزة فيقوم بطبعها ونشرها ويكون الإهداء: إلى رجل جيد وهو هنا ضابط المخابرات، المفارقة الأخيرة حين يشاهد ضابط المخابرات السابق والذي بدأ يعمل موزعا للإعلانات، ملصقا عن الرواية فيذهب لشرائها.

وحين يقلبها يجد أنها مهداة إلى رجل جيد وقد وضع الكود السري الذي كان يعمل تحته، يسأله البائع فيما إذا كان يريد إن يغلفها له كأنها هدية لكنه يقول له : أنها من اجلي.

استغرق عرض الفيلم أكثر من ساعتين ولكن الملل لم يتسرب إلى نفوس المشاهدين بسبب الإيقاع المشدود والتوترات التي انطوت عليها القصة والأداء المتفوق للممثلين، خصوصا الضابط الذي قدم شخصية مركبة واشتغل على المشاعر الداخلية واظهر براعة كبيرة في التعبير عنها، أما سباستيان كوك فاستطاع من خلال حركاته القليلة المناسبة إن يظهر ذلك الخوف والذهول المتوقع.

نجح الفيلم بشكل كامل لان أدواته كانت مكتملة ابتداء من السيناريو المتقن إلى حد كبير والكاميرا الجذابة التي صورت مشاهد في غاية الخصوصية، إضافة إلى الرؤية الإخراجية التي كانت محيطة بأدق التفاصيل، حاز الفيلم على جائزة الجمهور في استفتاء أجرته جريدة الفولكس كرانت الهولندية وعد أفضل فيلم لسنة ٢٠٠٧.